# كتب

**لم تكن كتابات دارفيو مبرّأة تماماً من النظرة الاستعلائية الأوروبية كما يوضح الكتاب الذي ترجم حديثاً للعربية، لكنها كانت أكثر إنصافاً وأمانة في تقديم حياة البداوة في فلسطين خلال القرن السابع عشر، مقارنة مع ما كان سائداً في كتابات رحالة تلك الحقبة**

## يوميات الفلسطينيين خلال القرن السابع عشر

# لوران دارفيو

**خالد بشير**

في سنة 1664، وصل القنصل التجاري الفرنسي لوران دارفيو إلى حيفا قادماً من صيدا، لأداء مهمة قنصلية، تمثّلت في تمكين الرهبان الكرمليين، الذين ينتمون إلى الكنيسة الكاثوليكية، من العودة إلى مقرّهم القديم على جبل الكرمل. لكن هذه الزيارة لم تقف عند حدود المهمة الدبلوماسية الجافة، بل سرعان ما تطوّرت إلى إقامة ممتدة جاوزت خمسة عشر عاماً، استطاع خلالها سبر أحوال تلك النواحي من فلسطين، الواقعة ضمن ما كان يُعرف بسنجق اللجون، في تلك المرحلة الزمنية، كما يوضحه كتاب «الحياة على جبل الكرمل – حيفا: رحلة الفارس لوران دارفيو إلى الإمارة الفلسطينية الحارثية في حيفا سنة 1664» (المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، بترجمة جمال أبو غيدا، 2025).

اقترب دارفيو من الأمير الحاكم للسُنجق، الأمير الحارثي محمد آل طاراباي، وكان السنجق يشمل البلاد الممتدة من سواحل حيفا إلى سهول جنين، وتمكّن من كسب ودّه وثقته فأقام في مضاربه، وأصبح جليساً له، بل وفي وقت لاحق سكرتيراً وكاتباً له. وبقي عنده مستقراً لأشهر بين عامَيْ 1664 و1665، اختلط فيها مع أهالي البلاد ليخرج بوثيقة تاريخية أصبحت مصدراً يوفر مادة عن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لتلك المناطق من نواحي شمال فلسطين خلال النصف الثاني من القرن السابع عشر، وهي فترة لا تتوفر فيها الكثير من المصادر للباحثين في التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للبلاد خلالها، ما اكسب الرحلة بالتالي قيمة بحثيّة بالغة.

جاءت رحلات ما بعد الحروب الصليبية، ومع تبلورها وتزايدها خلال العصر العثماني، لتعيد تدشين وتأسيس الوصل والتعرّف على بلاد الشام وجغرافيتها وتركيبة سكانها وطوائفها، ولترتقي وتتطوّر تدريجياً من ناحية الطابع والمستوى العلمي المنهجي والمحصول المعرفي النقدي، مبتعدةً عن الأساطير المحكية المتناقلة الموروثة من العصور الوسيطة، وكانت رحلة دارفيو حلقة بارزة في هذا التطوّر في رحلته هذه، ركّز دارفيو بخاصّة على البدو، من حيث استعراض عاداتهم وعلاقتهم بالأمير المحلي وبالسلطة العثمانية، وهو يفكك بذلك أوصاف «الهمجية» و«البربرية» التي التصقت بالبدو مثلما ترسّخ في منظور وكتابات الأوروبيين حينذاك، ليقدم توصيفاً إثنوغرافياً تسجيلياً جديداً متكاملاً عنهم؛ من حيث المأكل، والملبس، والمسكن، وآداب الضيافة، وحليّ نسائهم، وعنايتهم بالخيل، وغير ذلك من تفاصيل شؤون معيشتهم. وهو في ما يدوّنه يبتعد عن طابع التعصّب والتحسّس الذي كانت تتسّم به كتابات الرحالة من الحجاج المسيحيين في تلك الفترة. إنه يكتب بأعين الدبلوماسي والمستكشف الباحث الفضولي، وينتقد التصور النمطي الذي كرسته تلك الصورة النمطية؛ إذ يغوص في أعماق حياة البدو، وفهم منظومتهم الأخلاقية المتكاملة. لقد قدّم دارفيو البدو الأعراب بوصفهم مجتمعاً منظّماً، يتمسّك بمنظومة قيمية رفيعة تحكمها أخلاق الفروسية والشرف وإغاثة الملهوف المستنجد.

إذا نظرنا لكتابات مثل ما دوّنه الرحال الإنكليزي هنري موندريل، سنجده ينظر إلى خيام البدو من بعيد، ويكتفي بالتعبير عن الدهشة والاستغراب من مظاهرهم وطرائق معيشتهم، أما دارفيو فقد سكَن تلك الخيام وشاركهم في مآدبهم ومجالسهم، وخَبِر كل تفصيلة من تفاصيل معيشتهم. وهذا ما أكسب رحلته قيمة مختلفة.

وبينما عجز سائر الرحّالة الأوروبيين عن رؤية المرأة العربية بسبب التقاليد الصارمة، واكتفوا بتخمينات غامضة، استفاد دارفيو من ثقة الأمير طراباي ليدخل المضارب المحرّمة باعتباره صديقاً ومستشاراً مؤتمَن الجانب، وكتب وصفاً إثنوغرافياً، هو الأول من نوعه، لملابس المرأة وحليّها ودورها داخل المجتمع البدوي ومكانتها فيه.

وعن نظام التقاضي لدى البدو وخضوعهم التام له، يقول دارفيو: «كما أن هناك رجال شرطة مكلفين باستدعاء وجلب المتقاضين للمحكمة، وعلى الرغم من كونهم رجال شرطة عزلاً من السلاح، إلّا أن لهم سطوة ونفوذاً شديدَين، لدرجة أنهم عندما يبلغون رجلاً ما بأنه: مطلوب للمثول أمام العدالة الإلهية، يسارع ذلك الرجل من فوره وبلا أي مقاومة للتوجه للمحكمة إلا إن كان عازماً على يتحول إلى شريد خارج عن القانون ومتهم بعصيان أوامر الدولة وخيانتها».

يمكن القول بأن دارفيو دشّن نمطاً جديداً في الكتابات عن البدو، ساهمت في تغيير نظرة الأوروبيين عن هذا المكوّن، من «قُطاع طريق» إلى مجتمع له قِيَم وتقاليد وأعراف، ونظام فروسيّة صارم. ولقد تطوّرت هذه الكتابات لاحقاً إلى دراسات موضوعيّة بلغت ذروتها مع أعمال مثل موسوعة ماكس فون أوبنهايم، «البدو»، و«عرب الصحراء» لهارولد ديكسون.

وإن كان دارفيو قد ركّز على وصف الرُحّل، فهو يعطينا أيضاً تفصيلات مهمة عن حياة الفلاحين في القرى، من تقديم تفاصيل دقيقة عن المطبخ لديهم في تلك الفترة، مثل تقديم النبيذ مع الطعام في القرى المسيحية في شمال فلسطين. إلى ذكر حوادث قاسية تعرض لها الفلاحون، منها «الحملة التأديبية» التي شنها الأمير طراباي على فلاحي مرج ابن عامر وقرى نابلس في خريف 1664، إثر عجز الفلاحين عن دفع الضرائب بعد أن اجتاح الجراد محاصيلهم. بالمقابل، لم تكن كتابات دارفيو مبرّأة تماماً من النظرة الاستعلائية الأوروبية، التي ترى في نفسها ذاتاً متحضّرة مقابل آخر بِدائي، لكنها كانت أكثر إنصافاً وأمانةً وتفصيلاً في تقديم رصد تأملي مُنصِف لحياة البداوة في فلسطين في القرن السابع عشر، بالمقارنة مع ما كان سائداً في كتابات رحالة تلك الحقبة.

كان دارفيو متقناً للعربية والتركية بطلاقة، لم يحتج مترجماً وسيطاً كما كان حال معظم الرحالة الآخرين في عصره، وبينما كان مقيماً في المنطقة لسنوات ممتدة، بسبب عمله قنصلاً تجارياً فرنسياً في موانئ المدن الساحلية من بلاد الشام (منذ 1653)، كان رحّالة آخرون، من المعاصرين له، كالإنكليزيَّين؛ هنري موندريل مؤلف «رحلة من حلب إلى القدس»، وريتشارد بوكوك مؤلف «وصف الشرق وبعض البلدان الأخرى»، عابرين، مرّوا بالمنطقة لأشهر في طريقهم للحج أو لجمع وتدوين وصفٍ للآثار. كتب دارفيو بدافع الفضول لفهم الثقافة والمجتمعات، بينما رحّالة آخرون كان دافعهم الأول توثيق المقدسات المسيحية والبحث والتقصّي عن آثار المدن التوراتية المذكورة في «العهد القديم».

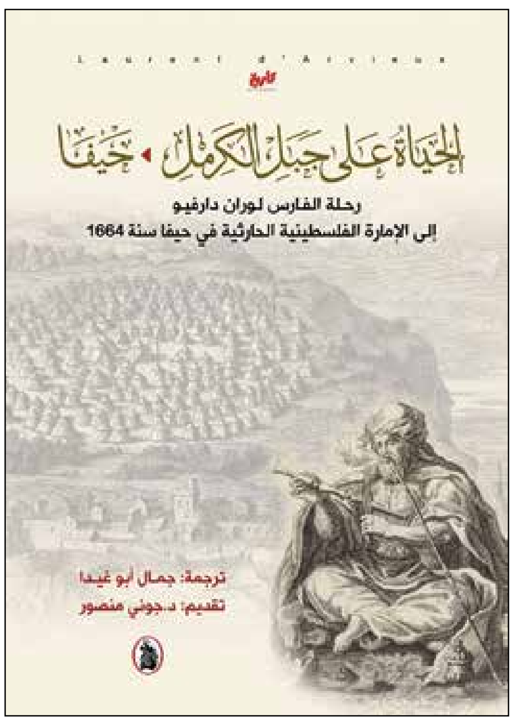


> لم يحتج مترجماً وسيطاً كما كان حال معظم الرحالة الآخرين

استفاض دارفيو في عرض الحوارات بين الناس وتفاصيل الأطعمة والملابس والمساكن وشؤون الحياة اليومية، بينما كان الرحالة الآخرون يركزون على إعداد الخرائط ووصف الطرق والمسالك والأماكن المقدسة وتوثيق الآثار والخرائب.

تعدّ كتابات الرحالة الغربيين في تلك الفترة مصدراً مهماً لدراسة فلسطين وأحوال الناس والإدارة العثمانية فيها، خلال العصر العثماني، وخصوصاً ما قبل سياسات تعزيز المركزية والتنظيمات التي تسارعت وتطوّرت في القرن التاسع عشر، وهذا هو ما تقدّمه رحلة دارفيو، إذ إنها تعطينا فكرة جيدة عن آليات وتفاصيل ممارسة الحكم، حيث الأسَر المحليّة (الأمراء) المفوّضة من السلطنة، تتولى إدارة شؤون الناس وجمع الضرائب وفرض الأمن، في المناطق الواقعة ضمن نطاق سيطرتها.

وبينما كان رحّالة مثل قسطنطين فولني، صاحب المؤلّف «رحلة إلى سوريا ومصر»، يكتب بعد نحو قرن من رحلة دارفيو، ويكشف ويرصد ضعف الدولة العثمانية، ويقدم تحليلاً عميقاً للاقتصاد والزراعة والتركيبة السكانية في مرحلة ضعف الدولة العثمانية قُبيل حملة نابليون، مقدماً ما اعتبر «دليلاً استخباراتياً» غير مباشر لنابليون بونابرت خلال حملته على مصر والشام، كان دارفيو يكتب قبله بقرن شارحاً كيف أنّ الإمارات المحليّة والقبائل البدوية في بلاد الشام كانت تشكّل قوة سياسية موازية لسلطات الدولة في أماكن وجودها. أسس دارفيو لأسلوب ونهج بحثي جديد في زمنه، قائم على المعاينة والفهم من الداخل، عوضاً عن الاكتفاء بالحكم من الخارج، وهو الأسلوب الذي سينضج ويسير عليه لاحقاً كبار رحّالة القرن التاسع عشر، من يوهان بوركهارت إلى وليم بلغريف وتشارلز دورتي.

**(باحث من الأردن)**

رسم لجبل الكرمل من كتاب الرحالة والجاسوس الإسباني علي باي العباسي، 1816 (Getty)

## نظرة أولى

صدرت عن المركز الثقافي للكتاب رواية **قبل السقوط بقليل** للكاتبة المغربية سلمى مختار أمانة الله. تتناول الرواية رحلة وجودية مفتوحة على الاحتمالات، تجمع شخصيات متباينة داخل طائرة فائقة السرعة في أول اختبار لها، تنطلق بين مطار محمد الخامس بالدار البيضاء ومطار كينيدي بنيويورك، إذ تتقاطع المصائر داخل فضاء مغلق تتسارع فيه الأحداث وتتشابك فيه الحكايات. وتتزامن الرحلة مع حدث كوني متخيّل، نهائي كأس العالم 2030 في المغرب، في لحظة تتكثف فيها أسئلة الانتماء والمعنى، كما تحضر غزة عنصراً رمزياً متسللاً في نسيج الرواية.

عن منشورات المتوسط، صدر للكاتب المغربي عبد الفتاح كيليطو كتاب **سُرّاق اللغة**، في ترجمة عربية أنجزها إسماعيل أزيات. يقدّم الكتاب قراءة تأملية في علاقة الكاتب باللغة والكتابة، مبتعداً عن النقد التقليدي، ومفتتحاً أسئلة حول ملكية اللغة ومصادرها. يطرح العمل فكرة أنّ الكتابة تقوم على التناص وإعادة إنتاج نصوص سابقة، إذ تتداخل القراءة الأولى مع تشكّل الوعي الأدبي. ويتوقف عند إشكالية الازدواج اللغوي بين الفصحى والدارجة والفرنسية، وما يرافق ذلك من توتر بين لغة مكتوبة وأخرى معيشة. ويبرز أثر المدرسة في تشكيل الذائقة الأدبية.

شكّل موضوع المرأة التي تكتب سبباً في خلق صراع شديد على مدى قرون. ففي أوساط النخبة، واجهت النساء اللواتي يُجدن القراءة صعوبات كبيرة في الإيمان بأنهنّ قادرات على الكتابة، وفي إقناع أنفسهنّ بأنّهن مؤلّفات ما كتبنه. في هذا السياق، يأتي كتاب **النساء اللواتي يكتبن، يعشن في خطر دائم** لستيفان بولمان، الذي صدرت ترجمته عن دار كابصا التونسية بتوقيع فائزة بودبوس، إذ يتناول تصوُّر معنى أن تكون المرأة كاتبة أو منتجة للخيال ومثمرةً لعوالم غير واقعيّة، وهو ما كان، في الحقيقة، أمراً غير مقبول ولا يمكن تخيّله طيلة قرون خلت.

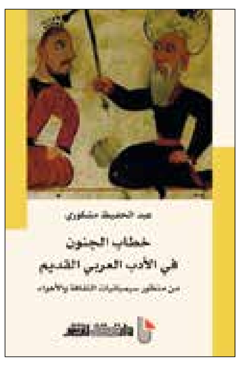

**خطاب الجنون في الأدب العربي القديم: من منظور سيميائيات الثقافة والأهواء،** عنوان كتاب صدر عن دار توبقال للباحث المغربي عبد الحفيظ مشكوري. يتناول الكتاب خطاب الجنون في الأدب العربي القديم بالاشتغال على متن رئيس متنوع بين أنساق شعرية (قيس بن الملوح، وشعر التحامُق في العصر العباسي)، ونثرية («البيان والتبيين» للجاحظ و«عقلاء المجانين» لابن حبيب النيسابوري). ويطبق فيه تصورات سيميائيات الثقافة والأهواء من أجل سبر أغوار هذا الخطاب وفتحه على أبعاد معرفية مستقاة من سيميائيات الثقافة وسيمياء الكون عند يوري لوتمان بشكل خاص.

صدر عن خان الجنوب كتاب للباحثة الفلسطينية اللبنانيّة رنا عيسى بعنوان **إن عشتم عشتم**. عبر توظيف السيرة الذاتية نمطاً كتابياً، واستعمال البوح الحميمي منهجيةً، تسرد الكاتبة قصص أربعة أجيال من الأمهات الجندريات المختلفات، في حكاية تتخطى الثنائيات وتتناول خياراتهنّ السيئة في سياق أمومتهنّ ومسؤولياتها. تتناول الكاتبة سيرتها وسيرة أمها وجدتَيها وعمتها وعمها وأبيها، من خلال منظور قائم على التفكر في الثورات العربية وما تركته لنا من إرث. بسرد تاريخ الشخصيات تعيد الكاتبة تشكيل الإحساس بالانتماء في زمن التهجير والموت والتغييب القسري

صدرت عن دار المدى رواية **الثور الوحشي** للكاتب دانييل غرانين، بترجمة تحسين عبد الرازق، وتقع في 389 صفحة. يستعيد غرانين في الرواية سيرة عالم الوراثة الروسي نيكولاي تيموفييف ريسوفكي، الذي عُرف بلقبه «المحنّك»، وجسّد نموذجاً للمثقف الحر والمغامر العنيد في آن. يرسم غرانين بورتريهاً لثائر في ميدان العلم، عبر سرد شبيه بالمذكّرات، تختلط فيه الحكايات العائلية بالعلوم، والأساطير العشائرية بالسجال الأيديولوجي، تصور الرواية حياة رجلٍ عاش في الهامش، في رحلة فلسفية في مصير الفردِ داخل آلة الدولة، وفي صراعه مع السلطة والزمن.

صدر عن الدار المصرية اللبنانية كتاب **أسرار الكتابة كما يرويها كتّاب العالم**، من إعداد وتقديم سارة حامد حوّاس، ويقع في 328 صفحة. يتناول الكتاب أسرار الإبداع كما عاشها ودوّنها سبعة عشر كاتباً وكاتبة من مشاهير الأدب العالمي، ويستعرض عملية الكتابة بوصفها مساراً يمكن تعلّمه وصقله وتطويره عبر استراتيجيات واضحة ونصائح مجرّبة. تجمع حوّاس خلاصات تجارب كتّاب عالميين، وتعيد تقديمها إلى القارئ، عبر التركيز على مفاتيح الكتابة المؤثّرة، كما تناقش أسئلة: كيف تبدأ الكتابة؟ كيف تستمر؟ كيف نتغلّب على الخوف والتردّد وحبسة الكتابة؟

صدر عن جمعية الفلسفة السعودية كتاب **ابن الهيثم: أول عالم تجريبي**، من تأليف برادلي ستيفنز، وترجمة عبد الرحمن المرزوقي. يقع في 155 صفحة، وهو أول سيرة شاملة عن ابن الهيثم، العالم الذي يُعاد اليوم اكتشاف إسهاماته، كأول عالم تجريبي حقيقي في تاريخ البشرية. ويستعرض الكتاب سيرة ابن الهيثم العلمية والحياتية، ويضيء على إسهاماته في تأسيس منهجية غير مسبوقة في دراسة البصر وانتقال الضوء، ويستعرض سياق عمله الأشهر «كتاب المناظر»، الذي وصل إلى أوروبا في العصور الوسطى، وأثّر في أجيال من العلماء، وأسهم في النهضة العلمية الأوروبية.